مقدمة

غطس شباب سمـر البشرة، بعضلاتهم المفتولة، وسواعدهم الموشومة في بركة السباحـة الواقعة فـي الحديقة الخلفية للقصر الجمهوري الـذي يحتل قلب المنطقة الخضـراء، بينما استلقى آخرون، بما يرتـدون من سراويل عريضة ونظارات شمسية علـى أرائك مظللة بأشجار النخيل الباسقة، يتناولون المقرمشات، ويرتشفون الشاي المثلج. استرخى -في الوقت ذاته، في الجانب المقابل- رجال ببزات الكاكي، ونسوة يرتدين ما هو رقيق من الملابس، في أحد الأكواخ الخشبية، ليعمد بعضهم إلى قراءة مـا هو مبتذل من الروايـات، ويستلقي آخرون بعد تناول الطعام في المقصف الحافل بالمأكـولات، بينما يستمعـون إلى موسيقى «الهيب هـوب» الأمريكية. عمل عشرة من العراقيين، من ذوي الأجساد النحيلة، بقمصانهم وسراويلهم الزرقاء المتماثلة، بين الفينة والأخرى، على تنظيف الأرضـ، وتشذيب الحدائق، وري المزروعات، يأتمرون بإمرة أمريكي ضخم الجثة، كث الشاربين، وقد بدا جميعهم، عن بعد، كمجموعة من المساجين المقيدين بالسلاسل.

مثلـت بركة السباحة رقعـة هادئة داخل المنطقة الخضـراء، الأمريكية، الممتدة على مساحة سبعة أميال مربعة في قلب بغداد، ليقطع سكونها ضجيج مروحيات بلاك هوك، التي تحمل إشارة الصليب الأحمر، وتحلق على ما هو منخفض من الارتفاعات؛ بغيـة نقل المصابين إلى المستشفـى الواقع أسفل الشارع. عمـد بعضهم إلى متابعة المروحيـات بأنظارهم، بينما لـم يكترث الغالبية لأمرها، علـى النقيض من أصوات هواتفهـم النقالة. لم توفر الشركـة الأمريكية، التي أقامت الشبكـة الهاتفية، خدمة البريـد الصوتـي، لتمثل إجابـة المكالمة السبيـل الوحيد لمعرفة ما يريـد المسؤول الأرفع شأناً، أو مكان إقامة الحفلات في وقت لاحق من الأمسيات.

ركـزت الأحاديـث المتبادلة علـى ما يتعلق مـن خطط بتمضية العطـل في البحر الميت، وجلسات السمر في الليالي الفائتة، ومن تحلت بالشجاعة لأخذ حمام شمسي،

قبالــة بركــة السباحة، وسط العشــرات من الرجال الراغبين. تحــدث أحدهم بذلك الصــدد، قائلاً لصحبــه: إنه يرى النساء كافة جميلات، بعــد قضاء بضعة أشهر في المنطقة الخضراء المكتظة بالذكور.

وافــق التاريــخ، فــي حينه، حزيــران/ يونيو 2004، بمــا يقل عن شهر مــن انتهاء الحكم الأمريكي في العراق. بقي عدد من البيروقراطيين - في القصر ذي الجدران الرخاميــة، الذي يمثل مقر إدارة الاحتلال - معزوليــن في مكاتبهم المكيفة، يعملون ثماني عشرة ساعة في اليوم، لإنجاز ما أمكنهم من المهام الموضوعة على لائحتهم، قبل أن يغادروا الديار. كافحت إحدى من أعرفهن من النسوة، وهي والدة أربعة أبناء مــن ديلاويــر، بغية توظيف العراقييــن لإعادة افتتاح سوق بورصــة بغداد. عكف أحد المحاميــن -ممن عملوا في السابق لدى رئيس المحكمة العليا ويليام رنكويست- على مراجعــة مسودة قانــون يلزم الأحــزاب السياسيــة العراقية بالكشف عــن حساباتها المالية، وفق النمط الأمريكي. انكب شاب أشقر، في أوائل العشرينيات، من المنتمين إلــى كاليفورنيــا، علــى إعداد ما يرسلــه إلى واشنطن مــن تقارير، تظهــر ما يحققه الأمريكيون من تقدم، وما ترتقي به الحياة في العراق بصورة يومية.

لــم يمثــل أولئك القاعدة، بــل كانوا شواذ عنهــا. استسلم معظم مــن في القصر ببساطــة، يلتمســون العزاء فيمــا يمكن أن يمارســوه من لهو في بركــة السباحة، قبل الذهــاب إلى حانــة شهرزاد، في فنــدق الرشيد، عنــد مغيب الشمــس؛ بغية احتساء الجعــة التركيــة، والنبيذ اللبنانــي، وغير ذلك مــن أصناف الشراب. عمــد أولئك - علاوة علــى ذلك- إلى ابتياع الساعات، والقداحات، وما يحمل صور صدام من عملة قديمة، ناهيك عن تناول البيتزا في مقهى المنطقة الخضراء، ودجاج «الكنغ باو» في المطعميــن الصينيين الواقعين على مقربة مــن القصر، والتدرب في صالة التمارين الرياضيــة، أسفل صــورة برجي مركز التجــارة العالمي، والاتصــال بأصدقائهم في الولايات المتحدة، بصورة مجانية، عبر ما منحتهم الحكومة من هواتف نقالة، علاوة على إقامة حفلات الوداع الصاخبة، وإرسال الرسائل الإلكترونية؛ بغية الحصول على وظائف في حملة بوش الانتخابية، عند عودتهم إلى الولايات المتحدة. بلغ التعب منهم

مبلغه، في نهاية المطاف، ليلوذوا بغرفهم، ويشاهدوا ما ابتاعوه من أفلام مستنسخة - اثنان مقابل الدولار - من الصبية العراقيين.

التقيت جون أغريستو للمرة الأولى في حديقة القصر. كان قد وصل بغداد، قبل تسعة أشهر، بغية تولي المهمة الشاقة المتمثلة في إصلاح نظام الجامعات في العراق - حيث انتسب أكثر من 375000 طالب إلى اثنتين وعشرين من الجامعات، التي تعرض معظمها للتخريب -على وجه التقريب- جراء أعمال النهب التي أعقبت الإطاحة بصدام حسين. لم يمتلك أغريستو أي خلفية في مجال إعادة الإعمار، في مراحل ما بعد النزاع، ناهيك عن افتقاره إلى أي من الخبرات فيما يتعلق بالشرق الأوسط. لم يزد عدد طلاب سانت جونز، الكلية التي كان يديرها، عن الخمس مئة، علاوة على ذلك، ليرتبط بمن هو مهم من المعارف: سبق لزوج دونالد رمسفيلد، وزير الدفاع، العمل في الكلية ذاتها، ناهيك عن عمل زوج ديك تشيني، نائب الرئيس، مع الرجل في وكالة «المنح القومية للإنسانيات».

بلغ أغريستو الثامنة والخمسين، حين التقيته، وقد كان قصير القامة، ممتلئ الجسد، ذا شعر فضي خفيف، وشارب ذي مسحات رمادية، وأنف بارز. أحب الرجل، بكل الأحوال، مقارنة مظهره بغروشو ماركس.

خاطبني أغريستو، بينما كان ينفث دخان غليونه، أسفل ظلال نخلة باسقة - حيث انعدمت أماكن التدخين المغلقة في المنطقة الخضراء - قائلاً: «أتيت العراق بوفرة من التفاؤل. رأيت صور الناس يحتفلون عند الإطاحة بتمثال صدام. رأيتهم يضربون صوره بأحذيتهم».

اختلف العراق الذي خبره الرجل -بكل الأحوال- إلى حد بعيد عما كان يتوقع. أضحت زياراته إلى ما كان يود إعادة بنائه من جامعات، وتطويره من كليات، أكثر خطورة بمرور الزمن، مما أسهم في ندرتها، في نهاية المطاف. أخبرني أغريستو، علاوة على ذلك، عن تعرض طاقم موظفيه العراقيين لتهديدات المتمردين، ناهيك عن تعكير صفو أمسياته جراء ما يسقط على المنطقة الخضراء من قذائف الهاون،

وإفشـال خططـه، المتعلقة بإصـلاح المئات من المبانـي الجامعية، مـن قبل البيت الأبيض. قدّر الرجل حاجة الجامعات العراقية إلى أكثر من مليار دولار، بغية تحويلها إلـى مراكز تعليـم فاعلة، ليحصل على ثمانية ملايين دولار، لا أكثر، من أموال إعادة الإعمار. رفضت الجامعات والكليات الأمريكية، علاوة على ذلك، التماسات أغريستو للحصـول على عونها. كان قد سـأل الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية توفير 130 ألف مقعد دراسي، ليحصل -في نهاية المطاف- على ثمانية آلاف، لا أكثر.

ازداد انفعـال الرجل، بينما كان يتحـدث، قبل أن يلوذ بالصمت، ويحدق في بركة السباحـة، نافثاً دخان غليونه بعيداً. استدار إلـيَّ بوجه شاحب، بعيد لحظات، قائلاً: «أنا محافظ جديد خذل من قبل الواقع».

obeikandl.com